قراءة أخرى في قصيدة أغنية لوطني للشاعر الدكتور محمد حماسة عبداللطيف

بقلم د. مفتاح محمد عبد الجليل- كلية التربية بالزاوية

مدخـل:

محمد حماسة عبد اللطيف[1] أستاذ جامعي طبقت شهرته الآفاق في أرض النيل وشاعرٌ مرهف الإحساس وهبه الله سعة الخيال، وقوة الذاكرة فأتقن اللغة العربية وأمتلك ناصية الإبداع فيها.

أمّا شعره فلا مجال لمنافسته لأنه نتاج تجربة موصولة بالزمن على اختلاف مراحله وبيئاته، لذلك كان اللقاء بقصيدته ((أغنية لوطني)) في هذه القراءة الحديثة محاولة اقتراب من تجربة شاعر ارتبط بالوطن وعشقه ؛ لأن الانتماء والوطنية تخلقا في ذاكرته فصار لهما فعل التأثير المستمر في حضوره الإنساني الدال.

القصيدة وفعل القراءة

تظل القراءة وسيلة مثلى للولوج إلى النص الأدبي ولكنَّ النص الشعري جنسٌ مخصوص الطابع وقراءة مادته يفرضها على المتلقى الذي يختاره لأن كل قارئ يميل إلى النص والمبدع الموافق لمذهبه ومساره الخاص. من ثم تتحقق قراءة الشعري في دائرة اتصال مرتبطة بالذات المبدعة والميول الشعورية التي تعنون للنص في الباطن دون تشويه.

أولاً:- القصيدة وفضاء العنوان:

يعدّ عنوان القصيدة أول أبواب الشعرية فيها لأنه يتضمن دلالات المعني وهو بؤرة النص وفيه تتحقق الرؤى والقيم الدالة على مستوى الإبداع يقول الأستاذ الدكتور شفيع السيد ((قراءة القصيدة مهمة عسيرة تبدأ بفضاء العنوان، لأنه مدار التعرف على الموهبة المنتجة، ومجال الاقتراب من شاعرية الذات المبدعة وهو فوق ذلك دائرة الانتقال من الوجه إلى الباطن عبر مسافة العمل الشعري ومساربه الواضحة))[2].على أن العنوان ((أغنية لوطني)) تشكيل متوازن يتفق وما يحويه النص من أبعاد المعنى والمبنى على المستوى الفني واللغوي، لذلك نجد الشاعر يعبر إلى وطنه من العتبة الكبرى ((أغنية لوطني)) ويستشعر في أعماقه مسافة الحنان والمحبة للوطن فيكون وطنه منبع الدفء الحاني وتلكم أعظم درجات الحنان الدافئ فحنو الدفء في الوطن الحنون مجال وصال دائم بين الوطن الوالد والشاعر الولد.

أمّا تصوّر الوطن أماً ودودة تروي وليدها لبن صدرها وذلك الشأن عظيم الارتداد على مساحة الشعرية الدالة في فضاء العنوان – العتبة الكبرى-.

في المقابل يتوزع النص الشعري عتبات عديدة تناسلت من العنوان متصلة بفضائه الدال عبر ورود رموز موحية في جمل شعرية متلاحقة.

من ثم تتحدد عتبات النص من تساكن الجمل الشعرية المنتجة متصلة عبر مسارب البناء العميق بفضاء العنوان ((العتبة الكبرى للشعر والشعرية)).

يقول الشاعر محمد حماسة في مقطعه الأول من قصيدة وطني:

يا منبع دفئ الحاني .... يا وطني
يا صدراً ممتلئ الثديين بأشهى لبن
يرضعني ... يحضنني ... ينضو عني حزني
وطني ... يا فجراً مزق وجه الظلمة في نظري
يا قلباً ينبض في كلمة
كلمة حبّ تهمسها شفتا حبٍّ
حبٍّ ... عملاق .. أسمر
السمرة نضح كفاح مر
أورق منه في العيدان النصر وطني
يابيدر أحلامي بيضاء انطلقت في الفجر
تنشر أجنة النور. وتخفق في شهقة صدر
وطني .. يا أبراج حمام
تمتد..: تعانق كل غمامات الأيام
تهدي للدنيا مع كل غمامة
ألف حمامة
وهديلٌ.. يهتف بربيع النصر علامة
ياوطني[3]

هذا هو الوطن في ذاكرة محمد حماسة يخرج في سحر الكلمات فالعتبة الكبرى الأولى ((أغنية لوطني)) تتجسد في ثنايا القصيدة شواهد وفاء ومحبة وإخلاص.

ثانياً:- الخطاب الشعري، وتجلياته الموزعة في نسيج النص:

في شعر حماسة خطاب متفرد في طابعه فهو تشكيل لغوي مسكون بشعور خاص يعتمد على صفاء الإحساس وتدفق الروح في مسارب الشعري بالأسلوب الدال الخاضع لسلطة الذات المبدعة فهو خطاب شعري متحرر في أسلوبه، ومنهجه، ولا توجهه أية أدوات بائدة بل يتحرك بتأثير العصر، ووسائطه الحديثة. من ثمّ أمكن القول بأن ((الشعري سيطر على مساحة الإبداع بخصائصه، وفرض بدائل حديثة توزعت في النسيج الشعري فجعلته مختلف الطابع بين الأنماط الأخرى)) [4] ولهذا صار النص ملمحاً حديثاً مواكباً لزمنه الإبداعي المغاير في كل شيء. أمّا حمولة المعنى، فتبدو في تقاطع القيم والصور عبر أنماط البناء، فالوطن منبع الدفء الحاني ويعني الوطن الأب والوطن الصدر الممتلئ باللبن الشهي ويقصد الوطن الأم وهما عربتا

الجمال والخلق في بينة المقطع الأول وهكذا تتجذر ملامح المعنى، والفن في الشعر.إلا أن الصور وأنواع التشكيل ظلت تتكثف لرسم اللوحة وتشخيص المحبة وتتزيا بأزياء كثيرة.بينما خرج المبدع إلى أفق بعيد وظل يقترب من وطنه يستمد منه كل شيء ليخلق فيه حالة من الطهر والانتماء.هكذا يسكن الوطن أعماق الشاعر الذي رحل به خياله وشعوره إلى عوالم شتى انتفع بها في رسم لوحة الوطن الحالم فالقصيدة بهذا الخطاب الشعري تعدّ مظهراً جمالياً وفنياً مخصوص التشكيل – فضلاً عن تناسل نصيّ أدخل الشعري في تقاطع مكشوف مع شوقي أحياناً ومع حافظ إبراهيم وعلي الجارم في أحيان أخرى وتلكم فضيلة النصوص فالنص الغائب حين يدخل الدائرة يدع الأثر يتحرك بلا مسيطر.وفي المقابل اختزل المبدع قيم الوطنية من موارد شتى وتعالق نصيّاً مع نصوص مختلفة أعانته على بناء خطابه الشعري الخاص في تكوين مغاير، فالوطن الذي جعله الأب مرة والأم مرّة وناداه عند دخول النص فاستهل شعره بالنداء بـ((يا))، وكان متجهاً إليه بعاطفة المشدود إليه وأوحى للمتلقي بعظمة القيمة والمحبة لهذا الوطن، فهو منبع الدفء والحنان ثم كرر النداء بـ((يا)) فقال: يا صدراً ممتلئ الثديين بأشهى لبن ثم عاد مرة أخرى فقال: ياقلباً ينبض في كلمة. كما استعمل حماسة ((يا النداء)) فأختار أسلوب النداء وسيلة لمناجاة وطنه وآثر أن يناديه في أنماط مختلفة ليحيط بكل أبعاد الشعور ومعاني المحبة والوطنية.إلا أن الطابع الرومانسي اقتطع مساحة من الشعور الدافئ ليخلق في النص هيئة الوطن وصورته المركبة في تكوين كبير مترابط.أمّا استخدامه للنداء في عباراته ((يا بيدر أحلام بيضاء انطلقت مع ضوء القمر. فهو توظيف فني محكم الأبعاد؛ لأن الشاعر سار خلف الرؤيا الشعرية حتى بلغ محطة الإيحاء لما هو مثير لكوامن النفس المتعلقة بالوطن ومن ثم يتحقق قول الناقد المغربي عبدالجليل ناظم وهو: عند الحديث عن الوطنية والانتماء يتدفق الشعور عبر شرايين الكلام متصلاً بالملكة وذاكرة الماضي والحاضر ليخلق للشاعر وجوداً خاصاً به في عالم التفرد))[5].وقد تناغمت مستويات الإبداع اللغوي والفني مع فعل الإيحاء والرمز ليؤشر الشعر على حيوية الشعور الخاص وأثره النفسي الرائع في الذات الشاعرة.

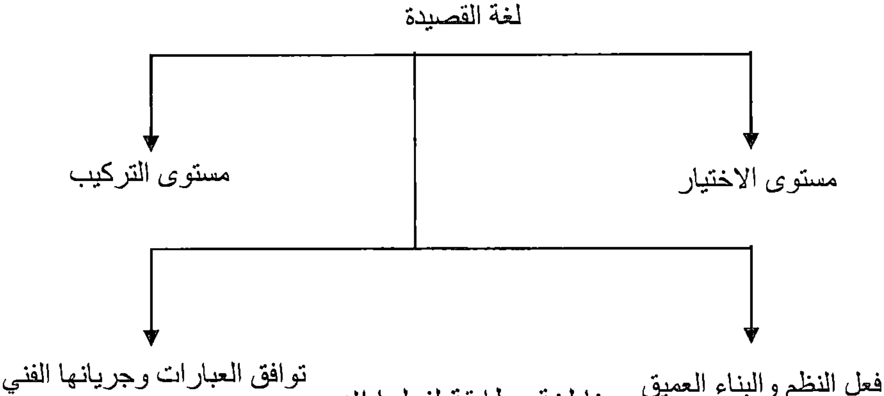
ثالثاً:- مستوى الموسيقى والإيقاع الشعري:

يقول أستاذنا الدكتور محمود الربيعي: ((الشعر موسيقى فلا شعر بدون نغم وإيقاع لذلك ظلت الموسيقى عنصر الإثارة والرقة في الشعر عبر مراحله المختلفة في كل اللغات والآداب))[6].من ثم كان اهتمام المبدع بالموسيقى في قصيدته فهذا العنصر تحقق في تفعيله القصيدة من الناحية الشكلية لأن قصيدة الشعر الحرّ تكتسب موسيقى الشكل أو ما يسمى بالموسيقى الخارجية من التفعيلة التي سرت في كيان النص منذ البداية حتى النهاية.أمّا العنصر الموسيقي الباطن وهو العنصر الإيقاعي فينتج عن الكلمات ووقعها الجرسي النغمي الذي يصنع موسيقى من نوع لطيف المخرج

والصدى.وإذا نظر القارئ في مفردات النص وجد مقاطع القصيدة مشحونة بكلمات دالة ونغمية، وتلك الكلمات انتشرت بتوازن واعتدال في ثنايا الجمل الشعرية من مثل ((الوطن – اللبن – الحزن – الزمن – السكن، والأفعال من مثل ((يرضعني – يحضنني – يحملني، يندبني ...الخ)) وتتوزع الكلمات بطريقة مختلفة لا صلة لها بتوزيع الأوزان والتفاعيل ولهذا صدرت الموسيقى عنها بتكافؤ وتواز مسموع.كما أن الجرس اللفظي لم يتحطم بفعل البناء الشكلي أو الفني بل تجاوب مع عناصر القصيدة حتى خرجت على النمط الإبداعي المدهش المقرؤ في هذا العمل.إلا أن الحمولة النغمية الصوتية تألفت من وقع الحروف وترابط الجمل في أنساق التعبير داخل سياق الكلام دون تباين في مستوى البناء الفني حتى تكونت البنية الإيقاعية المؤثرة بالتوازن مع الموسيقى الخارجية في تأليف إبداعي متكافئ.

رابعاً:- لغة الشعر في القصيدة:

عند التصدي للغة القصيدة يتضح مدى الاهتمام بالكلمات، وربطها الشعري والشعوري بفضاء العنوان فالمبدع رصد تجليات الوطنية في حياته، وواقعه، فاستوحى تراكيبه اللغوية الشاعرة من ذلك المصدر وهو معجمة اللغوي الإبداعي، ولم يُعْزه التعبير عن مقاصده، ولم يقف أمام السطور عاجزاً بل ذهب به إحساسه نحو الشعر دون عجز أو قصور.كما أن قدرته اللغوية ظهرت في أسلوبه وأدواته التي حاول من خلالها نظم معانيه في تكوينه الإبداعي الدال على غايته بوضوح مما يعين المتلقي ويجعله متصلاً بالنص ومعجباً به.يقول الناقد: أحمد درويش: ((اللغة وسيلة الشاعر عند بناء القصيدة، فدرجة التفوق اللغوي هي المعول عليها في عمله الإبداعي))[7].ومن ثم استخدم المبدع المألوف والشائع من الألفاظ المنتقاة، وكان صاحب بصيرة وقدرة مخصوصة فلم يخرج إلى مجال التعقيد والمغايرة الخاضعة للضائع المهجور من اللفظ بل جعل معياره الاتفاق بين الكلمة ووقعها الفني والنغمي وأثرها في توجيه المعنى وإثراء حقل الدلالة عليه.أمّا تباين أنماط البناء وتنوع صور النظم فمردّه إلى قدراته اللغوية، ورقي ذائقته وهو أمر مدرك في هذه القصيدة.كما أننا لو طبقنا نظرية ياوس وايزر في القراءة سنصل إلى مدى قدرة هذا الشاعر على صهر المشاعر في الجمل، وربطها باللغة لأجل خلق تكافؤ بين فعل اللغة وفعل الخطاب الشعري في دائرة التعبير.فالنظرية ترى أن ((التلقي هو العملية الخادمة للنص لأن هناك اتصال بين المبدع والمتلقي يخلقه التلقي وينتج عن ذلك الفعل الارتدادي للشعر على مساحة الذاكرة الجمالية عند القارئ المتلقي، وهي غاية كل مبدع ينتج شعراً))[8].في الوقت نفسه أبدى الشاعر احتفالاً واضحاً بالفصحى التي كان حسن اختيار مفرداتها سبباً في صقل الجمل الشعرية وتبويب الأداء الموسيقي فيها بتوازن نشط.



هنا لغة مطابقة لفعلها الإ[illegible]ير عن الموضوع الرئيس، وهو الوطن بأسلوب متكافئ حتى توفرت مساحة جمالية وأخرى نغمية موسيقية مثيرة جعلت المتلقي أمام دهشة بدهية مصدرها نجاح الشاعر في اصطياد كلماته وتركيبها وسبكها في تأليف متوازن هادف.إلا أنّ قدرة القارئ تبلغ مداها حين تكون القراءة مصدر فهم وتواصل أي أن تكون قراءة رصد واستيعاب من نوع آخر وهي القراءة الكاشفة التي ترتفع فيها درجة الاقتراب من النص بحسب ما ذهب إليه الناقد الأستاذ محمد عبدالمطلب،((وهذا النوع من القراءة التي أسماها بالقراءة الكاشفة أي التفاعلية تعتمد على التعامل مع النص بأدوات الوعي والتأويل والتفكيك والتحليل وممارسة المعايرة الدقيقة للتبصر بقيمة النص من مختلف الجوانب))[9]. في المقابل يتضح أن تركيز القراءة البصرية لا يكفي لمعرفة الحمولة الإبداعية للنص فالأبنية الأسلوبية والفنية للشعر وفحص خطابه الدال يتجاوز المستوى التقليدي القديم لأنه مغاير من جميع الوجوه لذلك القديم الذي يوافق واقعه فحسب.

((فالإحاطة يقيم الشعر الحديث بفرض على المتلقي نوعاً مختلفاً من القراءة وإيقاع الاهتمام الجاد لتحصيل مادة فنية إبداعية كامنة في نسيج النص لأن الاطلاع الخطي محدود الفائدة في مثل هذه النصوص الحديثة لأن هناك غموضاً معنوياً يظل مسيطراً على البناء الشعري حتى تصبح أبعاده في ضوء[10] العناية التي تتوفر بالقراءة التفاعلية الكاشفة)) التي يكون فيها النص قاسماً بين المبدع والمتلقي في دائرة الخلق والابتداع.ومهما يكن من أمر فإن القصيدة جمعتْ في مقاطعها جملة من المعاني الوطنية الدالة على مفهوم الانتماء، وحقوق المواطنة على أساس الصلات التي تربط كل مواطن بالوطن فضلاً عن بيان واجبات المواطن وما ينتظره من الوطن لتأكيد حقه في المواطنة والهوية فالوطن الأم والأب ومنبع الدفء والحنان وبيدر الأحلام والقلب والحياة هو الوجود الخالد في الاعماق، وهنا عتبات القصيدة تتوالى لتكشف عن فعالية الشراكة في المواطنة، ومدى الارتباط بالوطن الأصل في الوجود والمجال الحيوي للجماعة المعمرة له.أمّا فعل الرمز والإيحاء فأمرٌ مدرك في

الخطاب الشعري لأنه يؤشر على الأهمية الأساسية للاعتقاد الوطني بالانتماء لدائرة الحياة الأولى التي أطلق عليها الإنسان الوطن منذ أن فتح عينيه على الدنيا[11].

وفي نهاية هذه القراءة يمكن الحكم على هذه القصيدة من الناحية الإبداعية بأنها مظهرٌ من مظاهر التمرد على مألوف القوالب الجامدة من الشعر القديم لأن المبدع جمع أدواته من المعاصر المغاير، وحاول الاقتراب من المتلقي عن طريق الذات الشاعرة وتحرر من قيود البيئة المشروطة بتبعية القدماء واقترب من الخطاب الشعري الجديد خارج دائرة الجمود الفني الموروثة منذ عصر بعيد.

هوامش البحث ومصادره

1- د. محمد حماسة عبداللطيف، سنابل العمر، ديوان شعر، نشر دار غريب بمصر، (ط/1999م).
2- د. شفيع السيد، قراءة الشعر وبناء الدلالة، نشر دار غريب بمصر، (ط/ الأولى 1999م).
3- د. محمد حماسة، ديوان سنابل العمر، ص101.
4- د. إبراهيم عبدالرحمن، قراءة في ديوان حديث، نشر دار نهضة مصر، (ط/ 1998)، ص179.
5- د. عبدالجليل ناظم، نقد الشعر في المغرب الحديث، نشر المغرب، (ط/ 2003م)، ص202.
6- د. محمود الربيعي، دراسات نقدية معاصرة، نشر دار غريب./ بمصر، (ط/ 2000م)، ص146.
7- د. أحمد درويش، قراءات نقدية، نشر مكتبة النصر./ بمصر، (ط/ 1998م)، ص206.
8- د. محمود الربيعي، قراءة الشعر، نشر دار المعارف./ بمصر، (ط/ 1995م)، ص123.
9- د. محمد عبدالمطلب، قراءات حديثة في الشعر، نشر دار الزهراء للطباعة والنشر بمصر، (ط/ 1998م)، ص112.
10- د. شفيع السيد، قراءة الشعر وبناء الدلالة، ص209.
11- محمد جحا، الوطن في شعر نزار قباني، ماجستير مودعة بمكتبة جامعة طرابلس، 1999م، ص192.